هل الخوف من معوقات السعادة ؟

الخوف هذا الكابوس الجاثم على صدور الناس، الخوف من الموت أو المرض أو الظلم أو الحرب والكوارث؛ وكيف يمكن أن تتحقق السعادة وهذه المخاوف موجودة!

"يعرف أرسطو الخوف على أنه: ألم أو اضطراب ناجم عن تخيل حدوث كارثة مدمرة أو مؤلمة في المستقبل. وهو ناتج عن كل ما نشعر بأن لديه قدرة هائلة على تدميرنا، أو إيذائنا بطرق تميل لأن تسبب لنا ألماً كبيراً. وهو نقيض الثقة، ويترافق مع الخطر، الذي هو اقتراب شيء فظيع".[87]

الخوف من الموت هو السبب الأول لشقاء الإنسان، وهو الخوف الأكبر الذي يواجه البشرية.

منذ زمن بعيد كل ما وصل إلينا من أفكار عن الإنسان والسعادة، من هوميروس والأوزيسا، وهزيود – أقدم شاعر في الغرب ، والأورفية التي تمتاز بالإيمان الراسخ بالعدالة الإلهية – احتلت هذه الأفكار المكانة الأهم في تاريخ البشرية لأنها تناقش وتبحث مسألة طلب طول العمر والخلود. وأدى البحث عن أكسير الحياة إلى تطور الكيمياء تطويراً كبيراً. وحسب العقيدة الطاوية برغم أن المرء يموت إلا أنه لا يُفقد من الكون؛ فالفيلسوف الطاوي كان يجد متعة في تأمل العملية الكونية الضخمة، وفي هذا التأمل يشعر بفرحة لا تُقدر.

لاوتزو – مؤلف أقدم الكتب الطاوية– يقول:

"يأتي إلى الوجود عشرة آلاف شيء، وقد شهدتها تعود.

---

[87]- لماذا تتحارب الأمم ص 99.

كل شيء يجب أن يعود إلى أصله الذي صدر عنه.
هذه العودة إلى الأصل تسمى الهدوء، هي تحقيق لمصير فرد.
وأن يحقق كل شخص مصيره لهو النمط الأبدي
وإذا عرفت النمط الأبدي فقد استنرت
ومن يعرفه لن تعصف به الكوارث ولن توهنه
ومن يعرف النمط الأبدي فهو محصن من كل ناحية
والمحصن من كل ناحية هو عادل تماماً
وإذا كان عادلاً فهو ملك، ومن كان ملكا فهو كالسماء
وإذا كان كالسماء فهو متمش مع الطاو*
وإذا كان متمشياً مع الطاو فهو مثلها لا يفنى
وبرغم أن جسده قد يختفي في خضم محيط الوجود
فهو بعيد عن كل أذى"[88]

ويقول تشوانج تزو: " وإذا ما حلت الحياة فمرد ذلك إلى أن الوقت قد حان لها أن تفعل ذلك، وإذا ما ولت الحياة فهذه نتيجة طبيعة الأحداث. وتقبل كل الأشياء التي تحدث في تمام وقتها في هدوء، والعيش في سلام مع التعاقب الطبيعي للأحداث، لهو أمر لا يتطاول على تفكير صفوه حزن أو فرح، هذا هو حال أولئك الذين أسماهم القدماء المتحررين من العبودية".[89]

نظر الغزالي إلى الموت على أنه اللقاء فقال: "الناس إما منهمك وإما تائب مبتدئ أو عارف منتبه، أما المنهمك فلا يذكر الموت. وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت. وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقائه بحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب. وأعلى منه رتبة من فوض أمره إلى الله

[88]- الفكر الصيني ص 152.
[89]- الفكر الصيني ص 148- 149.

تعالى فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا. وهو الغاية والمنتهى."

يقول أبيقور: عود نفسك على أن تعتبر أن الموت لا يعنينا بشيء في الواقع، كل خير وكل شر يقيمان في الإحساس والحال أن الموت هو حرمان من الإحساس، أن الموت لا يعنينا لأنه عندما نكون هنا فالموت غير موجود، وعندما يحضر الموت فنحن لا نوجد بعد، أن الموت لا يعنى لا بالأحياء ولا بالأموات، لأنه لا يطال الأوائل، والآخرون ليسوا في الوجود، والعامة تهرب تارةً من الموت كأكبر الشرور، وتارةً تبحث عنه كهدنة من شرور الحياة، ولكن الحكيم لا يرفض الحياة ولا يخاف من عدم الحياة، لأن الحياة ليست وقفاً عليه، ولا يعتبر شراً عدم الحياة. وكما أنه بشأن الغذاء لا نختار ما هو أكبر كمية بل ما هو ألذ، كذلك بالنسبة إلى المدة – مدة العمر– لا نلتذ بالمدة الأكثر طولاً بل بالأكثر لذة. من يدعو الشاب إل العيش جيداً، والشيخ إلى أن يذهب جيدا ليس أحمق بسبب الطابع الملذ للحياة فحسب بل أن التمرن على الحياة جيداً وعلى الموت جيداً هو الشيء ذاته. – ويتابع أبيقور القول– لنقل الأبدية بدل الموت. فلنشطب كلمة الموت ونضع مكانها كلمة الأبدية، والأبدية لا تتحقق إلا بالعطاء والمحبة والتضحية وعمل الخير والإحسان. هذه ليست مجرد أوهام، بل هي الحقيقة.[90]

أبيقور يعتبر أن الأبدية تتحقق عندما يكون المرء راضياً عن نفسه ومقتنعاً بما يفعل وحين يشعر المرء أن الله معه وبجانبه يكتسب القوة وهذه القوة التي تحركه هي قوة إرادة خارقة. الجسد هو حتماً للتراب، وكل ما يفيد الجسد لا بد وأن ينتهي مع انتهاء الجسد، بينما كل ما يفيد الروح لا ينتهي وهو يبقى، فالجسد عنصر ترابي، والروح عنصر إلهي. ولا سبيل للسعادة سوى التحرر من كل ما يربطنا

[90]- نفس المرجع ص 245.

بالعالم السفلي عالم الظلام، والتمسك بتعاليم القداسة. الأبدية هي اللحظات الحاضرة والشعور الذي يبقى.

كل هذه الثقافات القديمة تقول بأن الإنسان مركب من جسد ونفس، فالجسد ينحل، والنفس أو الروح تنطلق. وكانت المقارنة بين سعادة وخلود الآلهة، وتعاسة البشر. وكانت الأحاديث عن العدالة والصبر والصدق والوفاء والبر الخ. محاولة لوجود رابط يربطهم بمميزات الآلهة ويكفل لهم السعادة ويخلصهم من كابوس الهلاك. فالجسد بالنسبة لهم هو بمثابة القبر للنفس وهو عدوها. وعلى الإنسان أن يتطهر من الشر كي تتحقق له السعادة الأبدية.

فيثاغورث يؤكد هذه الفكرة فيقول:

"آه يا جنس الرجال، يا من أنتم مذهولين بالخوف المرتعش من الموت... كونوا متأكدين أن لا شر يمكن أن يحدث لإنسان عادل في هذه الحياة، وبعد الموت أرواحنا خالدة باقية أزلية أبداً... الأشياء كلها تتغير وتتبدل، لا شيء يموت. النفس تطوف، تأتي إلى هنا الآن، وهناك حيناً، وتحتل أي هيكل يسرها، تتقدم نحو وجودها الأزلي أبداً، لكنها لا تهلك على الإطلاق. كن متأكداً لا شيء يفنى في هذا العالم، أنه لا يفعل سوى التنوع وتجديد الصورة، صورته فلا شيء يبقى طويلاً تحت المظهر عينه".[91] يؤكد الفيثاغورثيون أن النفس هي المبدأ وهي علة الحركة. الانتقال وليس الموت هو ماهية العالم. التغيير هو النظام الأزلي للأشياء كلها.

الكندي يرى أن الموت في نظر الإنسان البصير ليس شراً لأنه كمال الطبيعة البشرية. والإنسان الواقعي لا يجزع من مراحل العمر وكلما تقدم في العمر تتسع آفاق حياته وفي كل مرحلة من مراحل العمر لا يحب العودة إلى ما قبلها بحيث

[91]- سلسلة الحقيقة الخالدة- ص 54.

لو عرض عليه أن يرجع إلى بطن أمه وكان يملك كل ما في الأرض لافتدى به نفسه من ذلك.

وانطلق الفكر يتوسع في هذا الموضوع ليصبح نقطة الارتكاز في كل أمور الحياة. وباتت الأبدية أهم ما يهم الإنسان؛ حتى في أرقى الدول. فلم يعد هذا الموضوع مجرد أساطير قديمة العهد؛ "لقد كشفت استطلاعات غالوب أن ما بين 81 و93 % من الأمريكيين يعتقدون بوجود الجنة"[92]. وهذا أمر مثير للاهتمام، وهو سياسة هادفة لتخفيف وطأة الموت وجعله من الأمور الطبيعية.

"معظم أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والصلاة كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبي. وأن المرء المتدين حقاً لا يعاني مرضاً نفسياً قط. وعالم النفس مور يقول إن علة النفس في الحياة المعاصرة تكمن في الفجوة بين الدين والسلوك، وأن المحاولات النفسية ذات الأصول الدينية سوف تنقذ البشرية. أما شهادة (كارل يونغ) أعظم الأطباء النفسيين في أمريكا، فيقول إن الإيمان بالله والاعتماد عليه يجلب الأمان والسلام والاطمئنان"[93]. وقد ورد في رؤيا يوحنا بوضوح "أن الدينونة قد لا تأتي إلا في نهاية مطاف الإنسانية في الوقت الذي يتاح فيه الحكم على نحو نهائي على العواقب القصوى المترتبة على أعمالنا الدنيوية لأن هذه الأعمال تفلت منا في الواقع وتكون دائما عرضة للتغيير. وفي الدين المسيحي أوّل موت الجسد على أنه لحظة ولادة جديدة للروح في الله، وأن للخلود تصورين: خلود النفس بمفردها (أفلاطون والعقيدة المسيحية)، وخلودها بمعنى أن النفس الفردية تنحل في كلية شاملة (خلود لا شخصي نادى به سبينوزا). لكننا في الواقع ينبغي أن نسلم مع ابيقور بأنه لا يمكننا قول أي شيء حسي في الموت لأننا كما قال: "طالما أننا على قيد الحياة، فلا وجود للموت،

---

[92]- لماذا تتحارب الأمم ص 245.

[93]- العلاج الإيماني ص 95- 97.

وحين يحضر الموت نكون قد فارقنا الحياة". فمن الأنسب لنا إذاً أن نستخرج العبرة التي قد يمدنا بها الشعور بالموت لصالح الحياة الإنسانية" [94]

الأبدية موضوع لا يمكن أن يبرهن؛ "بوذا كان يعلم تلاميذه ألا يعنوا بالنظريات والعقائد وألا يتكلموا عما بعد الموت، وأن يوجهوا عنايتهم للعمل. وكلماته في ذلك هي: أيها التلاميذ لا تسألوا أسئلة كهذه، فإنها عارية من كل نفع، ولا يقدر أحد على جوابها، هل تكلم يوماً الذي مات؟ السؤال عن الغيب وتجدد الحياة لا يجدي نفعاً، ولكنه يعذب العقل وينهك القوى، عليكم بالسبيل النير الشريف، فإنه يوصلكم إلى السلام في هذه الحياة. واتركوا ما بعد الحياة إلى اليد التي تولته من أول الكون". [95]

"إن شجاعة الوجود تنهض في وجه القلق ووجه الموت، هذا الموت الذي أستطيع حقاً أن أنساه، ولكنه يعود للظهور في كل لحظة جلاء فكري على أنه تهديد دائم لا يمكن أن يزول. إن الشجاعة لا تستطيع الانتصار على القلق (إن في وسعها الانتصار على الخوف؛ الشجاعة لا تستطيع إلا أن تعترف به بدل الفرار منه إلى اللهو والتسلية... الشجاعة تتيح لنا إنجاز رسالاتنا وبناء آثار خالدة. بالرغم من القلق، وبالرغم من الموت. مثل ذلك، مثَل العجوز الذي يعرف أن أيامه معدودات، وتراه يبذل بهدوء جهده في تأسيس مشروعات جديدة يعرف أنه لن يبصر ازدهارها. ولا ريب أن ما يمنح الشجاعة تلك الجرأة على المباشرة بالمشاريع، وعلى تحدي التهديد الحقيقي جداً، تهديد الموت". [96]

دوستويفسكي يقول:" ما من إنسان يحيا دون غاية معينة، ودون سعي لتحقيق هذه الغاية، فما أن يضيع الإنسان عن غايته ويفقد الأمل، حتى يحوله القلق والغم إلى

---

[94]- قاموس الفلسفة ص 534.
[95]- أديان الهند ص 160.
[96]- المواقف الأخلاقية ص 170.

وحش" وأضاف أيضاً "إنها الخطيئة أن تهن عزيمة الإنسان... العمل، العمل هذه هي السعادة الفعلية".

وكما قال تولستوي: "السعادة هي أن تملك شيء تعمله، وشيء تحبه، وشيء تطمح إليه".

إذا كنا نحن من ضمن أشياء الطبيعة فيجب أن نحيا وفقاً لقوانين الطبيعة المتجددة دائماً والتي لا تتوقف عن العطاء.

"لا تستطيع أية مؤسسة مبنية على الخوف أن تقود إلى الحياة. الأمل وليس الخوف هو الأساس الخلاق في الشؤون الإنسانية. كل ما يجعل الإنسان عظيماً نشأ عن المحاولة للحصول على ما هو أفضل... من يتشبع تعليمه بهذه الروح سيمتلئ بالحياة والأمل والفرح، ويستطيع أن يساهم في جعل مستقبل البشرية أقل تجهماً".[97]

أسعد الناس هو الذي يسخر كل طاقاته للوصول إلى غاية ما أو لتحقيق فعل يتناسب أو ينسجم مع شخصيته، فالطموح هو الأمل وهو المخرج من الخوف، والتعاسة هي الاستسلام للخوف.

[97]- أسس لإعادة البناء الاجتماعي ص 136.